الفلاح والتعاون

للدكتور محمد أبوطائله رئيس قسم الارشاد الاجتماعى بادارة الفلاح

الجهود كلها متضافرة على النهوض بالفلاح ، والعزائم جميعها متجهة إلى رفع مستوى معيشته . وقد آمن ولاة الأمور بأن أى إصلاح لا يساهم فيه الفلاح ذاهب سدى ، لأنه بناء على غير أساس ، فلا بد من أن يحس الفلاح سوء حاله وأن يشعر بضرورة تحسينها ، ولا بد من أن يشترك بنفسه فى كل جهد يبذل لإصلاح شأنه ، وأن يقبل على مشروعات الإصلاح برغبة صادقة ، وأن يفيد منها ويصونها ، إبقاء عليها ، وحفظا لها من الفساد والزوال .

ولقد كان فى إمكان ولاة الأمور — لو شاءوا — أن يجترعوا الفلاح الدواء كرها ، وأن يلبسوه ما يحلو لهم من البرد غصبا ، وأن يقولوا له فى إيجاز كن راقيا فيكون ... ولكنهم بذلك إنما كانوا يعالجون مظهره ولا يبلغون إلى جوهره ، أو كانوا إنما يسكنون داءه ولا يبرئونه ، ثم لا يلبث الفلاح أن يعود عليلا هزيلا ، مثقلا بالدين ، ذليلا بالفقر ، رازحا تحت طبقات من الجهل والجمود .

وما كان للفلاحين أن ينتظموا فى الإصلاح فرادى مشتتين ، فإن الضعيف يظل وحده ضعيفا ، وإنما تولد القوة من رغبات موحدة ، وعزائم مجتمعة ، وجهود متآزرة متساندة ، إذا كان كل منها ضعيفا وحده فهو قوى بسواه ، و "الفلاح" قليل بنفسه كثير بإخوانه !

ومن ثم كانت مهمة التعاون سامية ، وكان عمله عظيما جليلا ، فإنه هو الذى يجمع بين الضعفاء ليخلق منهم مجموعا قويا ، ويوحد بين الفقراء ليجعل من شملهم هيئة غنية قادرة ، ثم لا يلبث أن يسخر هذه القوة الجديدة لخدمة المجموع وخدمة الأفراد فى آن واحد .

وقد اتخذت الحكومة من التعاون أداة لإنهاض الفلاح وإصلاح حاله ، وعمدت إلى الجمعيات التعاونية ، تنشرها فى القرى ، وتدعمها ، وتغذيها بالمال ، وتمدها بالإرشاد والنصح والمعونة ، علما منها بأن هذه الجمعيات هى الهيئات المنظمة التى تضم الفلاحين وتجمع شملهم وتوحد جهودهم ، برغبة منهم صادقة ، وإقبال لا ضغط فيه ولا إكراه .

فلننظر الآن ماذا تفعله هـذه الجمعيات ، وما يؤديه التعاون للفلاح من خدمات ، فى ميدانى الاقتصاد والاجتماع .

١ — إنقاذ الفلاح من المرابين :

كانت المهمة الأولى للتعاون فى مصر وغيرها من البـلدان الزراعية ، هى إنقاذ الفلاح من براثن المرابين الذين كانوا ينتشرون فى القرى ، ويستغلون حاجة الفلاح إلى المـال ينفقه على زرعه أو بيته ، وعلى ماشـيته أو أهله ، فيرهقونه بالربا الفاحش ، ويثقلون كاهله بالدين يتضاعف عاما بعـد عام ، وكلما حل التعاون فى قرية رحل عنها شياطينها من المرابين غلاظ القلوب ، لأن الجمعية التعـاونية تغنى أعضاءها عنهم ، بمـا تقدمه لهم من قروض قليـلة الفائدة ، لأغراض زراعية شتى ، كسـد نفقات الزرع ، أو شراء المـاشية ، أو اقتناء الآلات الزراعية أو غير ذلك .

ولقد وفق التعاون فى مصر إلى إنقاذ الفلاح من المرابين ، وحفظ لكثير من الزراع كبارا وصغارا أراضيهم العزيزة ، وأبقى للاقتصاد القومى هـذه الثروة الغالية . وكان لبنك التسليف الزراعى كذلك عمل مشكور فى هذا المجال .

(٢) خفض تكاليف الإنتاج :

توالت سنوات الأزمة على الفلاح ، وضـاع التناسب بين دخله وخرجه ، وهبطت قيمة المحاصيل ، فكان لزاما على ولاة الأمور أن يستنبطوا الوسائل لخفض نفقات الإنتاج ، حتى يلقى الفلاح بين ما ينفقه على أرضه وما يجنيه من غلتها ، جزاء حسنا على كدّه طول العام . وهـذه أيضا مهمة التعاون ، إذ تمدّم جمعياته لأعضائها بذورا وتقاوى بأقل سعر مستطاع ، وإذ تمدّهم بآلات زراعيـة للحرث والدرس والرى توفر لهم كثيرا من الوقت والعمل ، وإذ تقرضهم المـال الذى يحتاجون إليه بفائدة لا يحسون وقعها .

(٣) تسويق الحاصلات :

لا يقف التعاون عند مساعدة الفلاح على إنتاج محاصيله ، بل يعاونه كذلك على بيعها بأحسن الشروط وأعلى الأسعـار . فقد رأى الكثير من التجار يستغلون جهل الفلاح بالسوق أو حاجته العاجلة إلى المـال ، فيشترون منه محصوله بثمن بخس ، وبشروط فيها غبن كثير .

وقد أقبل التعاون على بيع بعض المحاصيل الهامة لأربابه ، خصوصا القطن والفواكه والخضراوات والبصل والبطاطس .

أما القطن فإنه يباع تعاونيا إما فى القرية ذاتها فيكون "بيعا محليا" ، وإما فى عاصمة المديرية أو أحد بنادرها فيكون "بيعا مركزيا" يشمل أقطان عدة جمعيات فى عدة قرى . وقد ثبت بالتجربة أن البيع التعاونى للقطن ، سواء أكان محليا أم مركزيا ، يكفل للفلاح أعلى الأسعار وأحسن الشروط .

وأما الفواكه فإن لها ثلاث جمعيات تعاونية كبيرة فى مناطق اشتهرت بإنتاج الفواكه ، والموالح منها على الخصوص ، وهى جمعيات الفيوم و بنها وشبين الكوم . وقد دأبت هذه الجمعيات على إصدار محاصيل أعضائها من الموالح إلى الدول الأجنبية حيث تباع بأسعار مربحة ، فضلا عن تخفيف الضغط على السوق المحلية بهذه الطريقة ، وتزيد جمعية الفيوم على ذلك أنها تشتغل بتصريف أنواع الفواكه — كالتين والعنب والبطيخ الخ — فى داخل البلاد .

وأما الخضر فقد جرب التعاون تسويقها فى جمعية الاسكندرية التعاونية الزراعية التى تشمل زراع الخضر فى منطقة ممتدة من الاسكندرية إلى كفر الدوار ، وقد أنشأت هذه الجمعية سوقين كبيرين لهذا الغرض ، وفيهما تباع خضر الأعضاء صباحا ومساء ، وكانوا قبل ذلك تحت رحمة نفر من الوسطاء أصحاب "الوكالات" فى المدينة ، الذين كانوا يفرضون أسعارا وخيمة وشروطا مجحفة .

وأما البصل فقد أنشئت لتسويقه جمعية تعاونية مركزية فى سوهاج ، تتولى جمع محصول الأعضاء وإرساله إلى القباوى وبيعه بما يحقق مصلحة منتجيه .

وأما البطاطس فقد أنشئت له كذلك جمعية تعاونية مركزية مقرها الجيزة تساعد زراع هذا المحصول عند إنتاجه وعند تصريفه .

(٤) تحسين الإنتاج :

يعمل التعاون على تحسين الإنتاج بطرق شتى : فمن ذلك أنه يورد للزراع أحسن التقاوى والبذور ، ويجتهد فى توحيد أنواعها سعيا وراء تجانس المحصول . وكذلك ينشر الإرشادات الزراعية بين الفلاحين ويشرح لهم أحسن الطرق للزراعة ولمقاومة الآفات . ويخطو فى ذلك

خطوة أخرى فيقاوم الآفات بواسطة " فرق تعاونية " تقاوم دودة القطن و "لجان تدخين" تكافح آفة أشجار الموالح ، وقد نجح فى ذلك كله نجاحا كبيرا شهدت به وزارة الزراعة فى تقاريرها الرسمية .

ومن وسائل تحسين الإنتاج نشر الآلات الزراعية بمختلف أنواعها وهو من أغراض التعاون كما رأينا .

(٥) تحسين القرية :

تعمل الجمعيات التعاونية على تحسين القرى بأن تعبد الطرق وتغرس الأشجار على جوانبها وتضيئها ليلا بالمصابيح . وقد تيسر المواصلات بين القرية وخارجها بإقامة قنطرة على ترعة أو اقتناء سيارة كبيرة للانتقال أو " معدية " تعبر النهر بالأهالى . و بعض الجمعيات التعاونية — كجمعية درشابة مثلا — تعمل على بناء بيوت الأهالى بالطوب الأحمر بدلا من الطين ، وبعضها الآخر — كجمعية بشبيش — تقيم متنزها عاما لتجميل البلدة . وكثير من الجمعيات التعاونية قد انشأت لنفسها بيوتا تجتمع فيها فأصبحت هذه المبانى ظاهرة حسنة فى القرى .

(٦) نشر التعليم والثقافة والرياضة :

أنشأ عدد من الجمعيات مدارس أولية وابتدائية للبنين والبنات مثل جمعيتى درشابة والعزيزية ، وأنشأت جمعيات أخرى معامل لتعليم صناعة الغزل والنسج مثل بهناى ودرشابة وبوش ، وقد زادت جمعية درشابة على ذلك فأنشأت فصلا ليليا يتعلم فيه الأميون من الكبار القراءة والكتابة والحساب .

وأعدت الجمعيات كذلك مكتبات عامة وقاعات للمحاضرات واقتنت أجهزة الراديو للترفيه على النفوس .

ومن الجمعيات أيضا ما تعمل على نشر الألعاب الرياضية ، وخصوصا القومى منها مثل " التحطيب " ، وبعضها ينشئ الملاعب الرياضية كذلك .

٧ — تحسين الصحة العامة :

استطاعت بلاد يوغوسلافيا أن تحسن الصحة العامة بين شعبها بتأسيس جمعيات تعاونية خصيصا لهذا الغرض . أما فى مصر فان هذه الغاية هى ضمن الغايات الاجتماعية العديدة التى

يتوخاها التعاون . فهناك عدد من الجمعيات أعدت ما تسميه " صناديق الاسعاف " وهى عبارة عن صيدليات صغيرة تحوى الأدوية الضرورية للعلاج . وجمعيات أخرى ساعدت على إنشاء مستشفيات فى بلادها . وجمعيات غيرها لم تستطع ذلك فاتفقت مع بعض الأطباء على عيادة أعضائها وأسراتها فى فترات معينة . ومن الجمعيات أيضا ما تردم البرك منعا لانتشار الملاريا وما أو الصهاريج لماء الشرب .

٨ — التربية الخلقية والمدنية :

الاعتماد على النفس هو المبدأ الأساسى الذى يقوم عليه التعاون ، والخلق الأول الذى يدعو إليه ويبثه فى النفوس . فالفرد التعاونى يعتمد على نفسه أولا ثم يتآزر مع إخوانه لخيره وخيرهم . والجمعية التعاونية تعتمد على نفسها ولا تلتمس معونة من الخارج .

كذلك يعود التعاون أربابه على أساليب الأخذ والعطاء ، ويدربهم على الاتصال بالعالم الخارجى وتتبع الأسواق المحلية والخارجية . ولهذا أثره فى توسيع مدارك الفلاحين ومعالجة ما يعيبهم من سذاجة بالغة .

والتعاون بعد ذلك يعلم أربابه أساليب الانتخاب والنيابة والمناقشة ، ويعودهم تقدير المسئوليات والواجبات والاحتفاظ بالحقوق ، وليست الجمعية التعاونية فى إحدى القرى إلا بمثابة برلمان صغير كفلت فيه الحرية والمساواة والشورى . فالتعاون على ذلك هو إحدى الوسائل لنشر التعاليم الدستورية الصحيحة فى مصر الحديثة العهد بالدستور .

هذا شأن التعاون مع الفلاح : يثبت وجوده ويحفظ كرامته ويقيم لشخصيته وزنا كبيرا ، ويقدم له خدمات مادية وأدبية واجتماعية تكاد تسد حاجاته كلها . وهو فى كل ذلك يعتمد على الفلاح لإصلاح شأن الفلاح ، ويشركه معه فى الرأى والعمل . بل يبدأ منه ويتهى إليه .

أفتوجد إذن وسيلة كالتعاون لتحسين حال الفلاح ، ورفع مستوى معيشته والنهوض به من كل وجه بأقل كلفة ، وفى أقرب وقت ، وبأضمن ثمرة .

محمد أبو طائلة